نقد المبنى التكويني للموجود الأنكلوسكسوني

المبنى الأميركي نموذجاً

عبد العالي العبدوني [*]

تحاول هذه الورقة إجراء مقاربة أنطولوجية لـ «التغوّل الأميركي» في العالم، ومساءلة ثقافته وسياساته في العمق من دون كثير احتكاك بالشواهد. ذلك لأن ثبوتية وضعه ـ كما يقول الكاتب ـ تعفي من كثرة الاستدلالات. يؤكد الكاتب على أن معضلة العقلية الأمبراطورية عند الأنكلوسكسون البيض الأميركيين قائمة على عدم رؤية أيّ تنوع في العالم إلا في إطار الاستتباع القهري لموجودها التاريخي.

تتضمن هذه الورقة للباحث والحقوقي المغربي عبد العالي العبدوني معاينات فلسفية تاريخية لأبرز المحطّات الكبرى التي سرت فيها الأطروحة الأميركية منذ تأسيسها قبل خمسة قرون وإلى أيامنا هذه.

«المحرر»

تقوم العقلية الأميركية على الارتهان إلى رؤية «السامري الشهم». وهي التسمية التي أطلقها الصحافي الأميركي هنري لوس خلال الأربعينات من القرن المنصرم. وكان لوس يقصد من ذلك حث الأميركيين على «السعي لإظهار صورة أميركا كقوة عالمية وكمركز دينامي لمجالات متسعة دوما من المبادرات والمشاريع. وكـ «محطة توليد» لمُثُل الحرية والعدالة»[1].

---

*- حقوقي وباحث من المغرب.

[1]- نيل فيرجيسون: الصنم ـ صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية ترجمة معين محمد الإمام الصفحة 109 عن دار العبيكان سنة 1427 للهجرة.

مثل هذا التصور ليس وليد الخمسين سنة الأخيرة، بل هو يتصل وعقلية الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وهو يعكس ذلك الهجاس لامتلاك إمبراطورية من نوع آخر؛ فمعضلة العقلية الإمبراطورية اذن، هي أنها لا ترى تنوعا إلا في إطار الاستتباع.

هكذا تصور يتداخل مع مفهوم المصلحة الوطنية للدولة كما نوه إلى ذلك المفكر أليكسندر ونت، التي حددها في أربع: البقاء المادي، والاستقلالية، والرفاه الاقتصادي، والاعتداد بالنفس الجماعي، بعد أن أضاف الركن الرابع لتحديد المصلحة القومية ومتبنيا في الآن نفسه ثلاثية الفقيهين جورج وكيوهان[1].

فالمدرسة البنائية تتأتى أهميتها في أنها لم تكتف كتوجه فقهي بمتابعة الوقائع الخارجية للدول والمنظمات الفوق دولية لوضع نظريات كالواقعية والواقعية الجديدة، بقدر ما رأت في الحراك الدولي ثقافة اجتماعية يتناسب التعاطي معها معرفيّاً، ورفعها إلى بنى فكرية عميقة تسمح بوضع نظريات أصلب.

وإذا ما اكتفينا ببحث صيغة الاعتداد بالنفس كمكون للمصلحة القومية للدولة نجد الفقيه ونت يربط هذه المصلحة «بحاجة الجماعة للإحساس بالرضى عن نفسها، إن من جهة الاحترام أو من جهة المكانة، فالاعتداد بالنفس حاجة بشرية أساسية على مستوى الأفراد كما على مستوى الجماعات»[2].

وهذا المرتفع القيمي ـ أي الاعتداد بالنفس ـ هو مقوم بنيوي يضمن الكرامة وعزة النفس، دونما خنوع لعملية الاستقواء وبالتالي فهو أول ما يتبدى للناظر أمام تعملق الدور الأميركي بوصفه امبراطورية.

فإذا ما اهتز عنصر وركن الإعتداد بالنفس الدولتي فإنه يؤدي إلى ضياع معالم الدولة القوية، ثم لتتحول إلى دولة ضعيفة فاقدة للمشروعية الداخلية، مما يدفع بمصادر القرار إلى التعامل بشكل عنفي وفي إطار انعدام الديموقراطية في مواجهة الاحتجاجات، وربما حتى مشاريع انقسام قد ترتفع في وجه هكذا دول.

---

[1]- Alexander Wendt : op cit «George and Keohane identify three national interests – physical survival, autonomy, and economic well-being – which they describe informally as "life, liberty, and property". I will add a fourth, "collective self-esteem" p 235.

[2]- Alexander Wendt : op cit « collective self-esteem refers to a group's need to feel good about itself, for respect or status. Self-esteem is a basic human need of individuals, and one of the things that individuals seek in group membership."

فما يصرح به الفقيه هولستي في ما أسماه «معضلة الدولة الضعيفة» يجد مسوغاته النظرية والتطبيقية في واقع أن «الدولة الضعيفة مقحمة في حلقة مفرغة؛ فهي لا تملك الإمكانيات لخلق المشروعية بضمان الأمن وخدمات أخرى، وأنها في محاولة امتلاك القوة، تتبنى سلوكات افتراسية واختلاسية بين القطاعات الإجتماعية، فكل ما تحاول كسبه من القوة يؤدي إلى دوام ضعفها»[1]. لذلك يظل من الخطأ القاتل اعتماد الأركان الثلاثة والتركيز عليها، بمعزل من الركن الرابع لأنه سيؤدي حتما إلى عدم الاستقرار، واهتزاز صورة النظام السياسي في مواجهة شعبه، فضلاً عن انفتاحه كما الطريق السيار أمام التدخلات الخارجية في الشؤون السيادية. وعليه فإن دائرة الفكر الاستراتيجي الغربي تتأسس بالأصالة على سحب معامل الاعتداد بالنفس لدى شعوب بلدان الأطراف.

من هنا يمكن أن نفهم مشروع «القوة الناعمة» الذي طرحه جوزيف ناي وخصوصاً لجهة نزع الحصانة القيمية والفكرية عن العالم لتتيسر عملية «أمركة العالم» فهكذا مشروع لا يقوم إلا بنزع الاعتداد بالنفس عن الآخر موضوع الهيمنة.

الجهد الأميركي من هذا الجانب يقترب من العقل القروسطي الذي طالما سعى كانط إلى محاربته من أجل خلق اتحاد عالمي عادل. لأن «التقسيم» و «العدوان المستمر» فكراً وممارسة هما من أهم نواقض المشروع الكانطي ذاته، والذي لا يقع إلا ضمن خانة «العمل المشين».

مثل هذا السياق الهيمني لا يكون رائيا إلى السلم العالمي بقدر ما يكون ناظراً إلى التمدد الإمبراطوري، انه سياق يحمل في منطقه الداخلي امتثال العالم للتصور الأحادي بدلا من «فعل التواصل» الناظر لتوافقات وتوازنات تشتغل على المشروع السلمي، وخصوصاً أن المجهود العنفي للولايات المتحدة الأميركية يقف في عرض هذا المشروع بطبيعته.

المهم أن الفلسفة السياسية لأميركا كونت تصوراً خاصاً عن نفسها يجعلها تشكل «استثناءاً» من القاعدة الدولية لتعيد النظر في مجمل البنى الفكرية العالمية من أجل تطويعها وفق معتقد «الأرض الموعودة» وحماية المضطهدين في العالم. ان هكذا

[1]-Jean-Jacques Roche : Théories des relations internationales, clefs politiques, 5éme édition, Montchrestien. 2004, p 110.

استثنائية في الوجود يؤدي لا محالة إلى التفرد في اتخاذ القرار بوصف « الفردانية» بأنّها من المكونات الفلسفية الضامنة للاستثناء دون إغفال رغبتها المهجوسة بـ « نشر الخير» GLOBAL MILIORISM في العالم وفق تصوراتها المتأصلة على هذه القواعد الثلاث: الاستثنائية – التفردية – التدخلية[1].

فصام الأطروحة

لم يكن مستغرباً أن تكون الولايات المتحدة الأميركية سيادية في الداخل؛ تدخلية في الخارج[2]،دون أن تحترم باقي السيادات، بمعنى أن منطق التدخلية غير قائم بتاتا على الأقل ممارسة في مجالها السياسي السيادي، لتعود فتنقلب على الخارج بالمنطق التدخلي دون كبير اهتمام للمبنى الفكري السياسي السيادي.

وما كان حملُها لحلم «السلم الأميركي» سوى استلهام للنموذج البريطاني والذي استمد الشعار نفسه من الإمبراطورية الرومانية، مع فارق أساسي أن الأخيرتين رفعتا شعار «السلم» في حدود إمبراطوريتهما.لكن التجربة الانكلوساكسونية الاميركية خطت بخلاف ذلك حيث عملت على فرض هذا الحلم على مجمل دول العالم.مع ذلك يظل شعار السلم العالمي في جميع الأحوال كاذبا وزائفا لأن «الإمبراطوريات عبر التاريخ قلما توقفت عن القيام بعمليات عسكرية على أراضيها، كما أنها كانت بلا ريب تقوم بذلك على حدودها طيلة الوقت[3]»، لذلك يرى روبرت كوبر بأن السلام الأميركي هو «سلام عسكري أكثر منه سلام إمبريالي سلام تحالفات وقواعد بدلا من وكلاء قناصل وحكام»[4].مما يعطي ملاحظة المؤرخ هوبزباوم طابع الدقة إلى أقصى الحدود، في حين يدافع كوبر عن الطرح الإمبراطوري بوصفه الضمانة الأساسية لاستقرار العالم، فقد كان كتابه مرافعة كاملة بهذا الخصوص، حيث أغفل واقعة أن البعد التوسعي العسكري هو احد أهم مصاديق عدم الاستقرار في العالم. هكذا حقيقة لا يمكن لأحد أن يغفل

---

[1]- Pierre Hassner : Etats Unis : l'empire De La Force ou La Force de l'empire ?, Cahiers De chaillot, numero 54, Septembre 2002, Institut d'études de sécurité, p : 14.

[2]- Pierre Hassner: op.cit p: 47.

[3]- إريك هوبزباوم: العولمة والديموقراطية والإرهاب، تر: أكرم حمدان و نزهت طيب، عن الدار العربية للعلوم ناشرون، ومركز الجزيرة للدراسات، الطبعة الأولى 2009، الصفحة 47.

[4]- برت كوبر: تحطم الأمم ـ النظام والفوضى في القرن الحادي وعشرين، تر: زهير السمهوري، دار العبيكان، سنة 2005، الصفحة 299. كما يمكن مراجعة كتابات روبرت كاغان والذي يعتبر من أشرس المدافعين عن فكرة الإمبراطورية وضرورتها في الوضع الدولي الراهن.

عنهـا، خصوصـا أمـام نشـوء قـوى دوليـة كـبرى جديـدة. بمعنـى أن المنطـق الإمبراطـوري الأمـيركي هـو منطـق جالـبٌ لأزمـات أمنيـة وسياسـية في المشـهد العالمـي بخـلاف الأنمـوذج الإمبراطـوري الكلاسـيكي. وحتـى لا نذهـب بعيـدا في هـذا الموضـوع فإننـا سـنمر إلى مسـوغ وجـود هـذا الهُجـاس في الاطروحـة الأميركيـة. وبالطبـع، مـا كان لهـذا الهجـاس الإمبراطـوري أن يتولـد فعليـاً في الذهنيـة السياسـية الأميركيـة إلا لتحقـق أربعةتحـولات كـبرى:

-**التحـول الأول:** هـو تسـارع العولمـة بشـكل غـير مسـبوق ابتـداءً مـن سـتينيات القـرن المنـصرم.

-**التحـول الثـاني:** اهتـزاز ميـزان تـوازن القـوى الـدولي عـلى إثـر الحـرب العالميـة الثانيـة والتـي هدمـت قـوى كثـيرة كانـت لتقـف في وجـه المـشروع الامبراطـوري الأمـيركي.

- **التحـول الثالـث:** اهتـزاز مفهـوم الدولـة / الأمـة لعجزهـا عـن حـل المشـاكل الفـوق دولتية،مـا أدى إلى تضعضـع إسـمنت السـيادة الوطنيـة.

- **التحـول الرابـع:** فـكان النكبـات الإنسـانية العالميـة، والتـي يصفهـا المحللـون بالمشـاكل العالميـة التـي تحتـاج إلى حلـول عالميـة. كل هـذا جعـل المطمـح الأمـيركي يرتفـع إلى حلـم الإمبراطوريـة والتـي يسـعى جاهـدا لإقامتهـا عـلى الأرض[1].

وهـذا راجـع إلى بنائهـا الفكـري السـياسي منـذ الآبـاء الأوائـل التـي طبعـت منشـورات «الفيدراليـين» حيـث إنهـا قطعـت مـع مفهـوم السـيادة الوطنيـة الحديثـة التـي انتـشرت في أوروبـا لتعـود إلى المقتـضى السـيادي «الأصـلي» والتـي ترجـع أيضـاً إلى منطـق «لا حـدود» بوصفهـا سـيادة تتجـاوز الجغرافيـات الوطنيـة التقليديـة لأنهـا فضـاءات مفتوحـة، فضـلا عـن أنهـا تحاول إجـراء تدبـير توافقـي لحسـم الاختلافـات داخـل الجغرافيـا الوطنيـة الأميركيـة، قاهـرة لغيرهـا من التصـورات خـارج الجغرافيـا الوطنيـة لأن « الحريـة صـارت سـائدة، والسـيادة حـددت بوصفهـا ديموقراطيـة عـلى نحـو جـذري داخـل سـيرورة توسـع مفتـوح ومسـتمر».[2] ذلـك يعنـي السـيادة الوطنيـة لا تنشـأ مـن بنـاء فكـري فلسـفي سـياسي تطابقـي مـع التصـور العـام بقـدر مـا تتولد من رحـم معتقـد حمـل مصـير العـالم، ويـرى الى امـيركا عـلى انهـا الأمـل الأخـير للبشريـة جمعـاء. هـذه الخلفيـة المعتقديـة التـي انتـشرت في مجمـل الكتابـات الدسـتورية هـي التـي مهـدت

[1]- إريك هوبزباوم: م.س الصفحتان 44 و 45.

[2]- محمـود حيـدر : لاهـوت الغلبـة التأسـيس الديني للفلسـفة السياسـية الاميركيـة – دار الفـارابي – مركـز دلتـا للأبحـاث المعمّقـة – بـيروت 2009 ـ ص 205.

لظهـور الفلسـفة النفعيـة والبراغماتية[1]مـما ولـد نوعـا مـن الثنائيـة الخطـيرة التـي تقـوم عـلى ان الفكـرة الأميركيـة سـياديّة في الداخـل تدخليـة في الخـارج.

عقدة تدمير البدء الأوروبي

والمعادلة هنا هي على الشكل التالي:

مـا دام الفضـاء الجـواني الأمـيركي غـير قابـل للتوسـعة والفتـح فذلـك مـا سـوف يطابـق إلى حـد كبـير مجمـل التدبـيرات السـيادية العالميـة. لكـن بمجـرد الخـروج مـن الحـدود الدوليـة تنفتـح الفضـاءات لتصـير أوراش اسـتراتيجية للعقليـة الأميركيـة، ومـا دامـت الحـدود عنـد الأنكلوسكسـون الأميركيـين مجـرد عتبـات يمكـن تجاوزهـا، تصـير باقـي السـيادات مجـرد عقبـات يجـب نقضهـا.

وطبعـاً تعـود هـذه الخصيصـه التكوينيـة بالأسـاس إلى مـا أسـماه الفيلسـوف مارتـن هايدغـر «عقـدة تدمـير البـدء الأوروبي»، يقـول هايدغـر: «نحـن نعلـم اليـوم، أن العالم الأنكلوسكسـوني للأمركـة قـد قـرر تدمـير (vernichten) أوروبـا، وذلـك يعنـي تدمـير الوطـن، وذلـك يعنـي تدمـير البـدء الخـاص بالعنـصر الغـربي (den anfang des abendlandischen). إن البـدئي (anfangliches) لا يقبـل أن يقـضى عليـه، إن دخـول أمـيركا في هـذه الحـرب الكوكبيـة ليـس دخـولا في التأريـخ، بـل هـو يُعـدُّ الفعـل الأمـيركي الأخـير للاتاريخيـة الأميركيـة وتخريبهـا لذاتهـا. وذلـك أن هـذا الفعـل هـو رفـض لمـا هـو بـدئي وقـرار مـن أجـل مـا لا بـدء لـه (das anfanglose)»[2]. فهايدغـر لم يقـرأ في السـلوك التدمـيري الـذي مارسـته الولايـات المتحـدة الأميركيـة في أوربـا إلا هدمـاً لذاتهـا لأنهـا تريـد القضـاء عـلى البـدء، ويمكـن أن نحـور النقـاش إلى ثقافـة « قتـل الأب» التـي اعتبرهـا فرايـزر أصـل بدايـة الحضـارات، وهـو نفـس مـا نحـا إليـه سـيغموند فرويـد عندمـا اعتـبر أكـبر طابـو تمـر بـه البشريـة هـو عمليـة «قتـل الأب» وأكلـه.

نشـير الى الخلاصـة التـي يقدمهـا المفكـر التونـسي فتحـي المسـكيني في قراءتـه لمقولـة الفيلسـوف الألمـاني فـيرى:أن «هايدغـر يضـع حـداً للصـورة» الحديثـة «لأمـيركا في المخيـال

---

[1]ـ لمزيـد مـن التوسـع بخصـوص تفاصيـل الفكـر السـيادي الأمريـكي لا بـأس مـن مراجعـة كتـاب الإمبراطوريـة لمايـكل هـارت وأنطونيـو نيغـري خصوصـا الفصـل المعنـون بشـبكة القـوة السـيادة الأميركيـة وميـلاد الإمبراطوريـة الجديـدة مـن الصفحـة 160 ومـا يليهـا.

Antonio Negri and Michael Hardt : Empire, Harverd University Press, London, England, 2000.

[2]- فتحـي المسـكيني: الفيلسـوف والإمبراطوريـة في تنويـر الإنسـان الأخـير. طبعـة المركـز الثقـافي العـربي سـنة 2005 الطبعـة الأولى الصفحتـان 82 و 83.

الأوروبي ويرسم صورتها ضد ـ الأوروبية anti-européenne وضد ـ الحديثة anti-moderne. إن أميركا التي «أَوْرَبَتَ» العالم الجديد قد انقلبت فجأة إلى خطر حاسم على الوجود الماهوي لأوروبا، وذلك يعني الخطر على «الوطن» الأصلي للغرب»[1]. فالولايات المتحدة تحولت إلى موجود ميتافيزيقي نقض حق الجغرافيا بإبادته للهنود الحمر، ونقض حق الولادة/ الوطن بتدميره لأوروبا، بوصفها عين البدء، فـ «الأمركة (amerikanismus) ليست صفة جغرافية هنا بل هي «قرار» ميتافيزيقي إزاء موجود يتخذ من «التقنية» بما هي «قشتال» (الإطار) ـ أي بما هي تدبير حسابي يستفز الموجود ويوضِّعه قصد تسخيره واستعماله بلا حدود ـ نمط تأويله لمعنى وجودنا في العالم. ولذلك لا تعني « اللاتاريخية» في ماهية أميركا مجرد فقدانها لتاريخ طويل مثل العالم القديم، بل اللاتاريخية هنا مكانية: إنها تتعلق بالعنصر «البدئي» الذي يؤدي في السؤال عن معنى وجودنا في العالم دور مفهوم «الوطن». إن لا- تاريخية أميركا تعني لا- بدئية ولا- وطنية العالم الذي تقيمه بدلا عن الذي تريد تدميره»[2]. فالجهد الأميركي عند هايدغر ينصب بالأساس على تخريب الذات البدئية بما هي وطن، ورسم سؤال الوجود في العالم بميتافيزيقا حديثة.

لكن الأجدر في هذا المجال هو الذهاب أبعد من ذلك، لأن الإطار الأوروبي قد تواصل في مراحل تأريخية مع الإطار الفكري الإسلامي والآسيوي، مما يمكن أن يدفعنا الى الاستنتاج بأن الجهد الأنكلوساكسوني الأميركي هو نقض للبدء الإنساني برمته.

انانيات المسلكية الوجودية

ـ يجري تعريف القوة عادة، بأنها القدرة على فعل شيء ومنع الآخر من حيازة نفسها. فهي بهذا المعنى تحمل جنبتين إحداهما إيجابية وهي القدرة على فعل شيء تحت الإكراه أو الإقناع أو الجاذبية، والثانية سلبية لأنها تنبني على سلب القدرة نفسها عن الغير.

تصاريف القوة بهذا المنطق هي أعلى مصاديق الأنانية الوجودية، لكنها حقيقة واقعية مثل جميع السلبيات السارية في هذا الوجود الفقري. لذا لا ينبغي ان يستغرب المرء من معاينة حجم الصفاقة التي تملأ كتابات منظري القوة وتركيزهم على علو

---

[1]- فتحي المسكيني: ن.م الصفحتان 83 و 84.

[2]- فتحي المسكيني: ن.م الصفحة 84. الملاحظ بأن الفيلسوف المسكيني عمد إلى تعريب أفهوم **gestell** ب «قشتال» إلا أننا فضلنا البعد العربي للأفهوم وهي « الإطار».

شـأن بلدانهـم. منهـج التدافـع الحضـاري يرمـي إلى قصـم ظهـر الخصـم مـن أجـل قامـة أكـثر رفعـة للبلـد الـذي يحمـل جنسـيته؛ ذلـك مـن مفارقـات التعايـش الـدولي حيـث لا يسـتقيم هكـذا تعايـش إلا بكـسر كرامـة البلـدان الأخـرى. لـذا لا نعتقـد بجديـة مـا يتـم الحديـث عنـه حـول سـلم عالمـي، والتعايـش الـدولي المشـترك وغيرهـا مـن الاجهـزة المعرفيـة التـي ترفـع كصيـغ للدعايـة، فيـما تنتصـب في مقابلهـا مفاهيـم إرهابيـة كالتدخـل الـدولي الإنسـاني والقتل المسـتهدف، والحوكمـة العالميـة الـخ...

جوزيـف نـاي وهـو أحـد منظّـري الاطروحـة الاميركيـة، يعـرِّف القـوة بأنهـا «امتـلاك كميـات كبـيرة نسـبيا مـن عنـاصر كالسـكان، والإقليـم الجغـرافي، والمـوارد الطبيعيـة، والقـوة الاقتصاديـة، والقـوة العسـكرية، والاسـتقرار السـياسي»[1]وهي تتكامـل جميعـاً لتكفـل القـدرة عـلى فـرض التصـور ومنـع الآخـر مـن الاقتـدار عليـك، فهـي عمليـة ثنائيـة لا تقـوم إذا انتقـى أحـد جانبيهـا، إلا أنـه يعيـب عـلى الطـرح الصلـد للقـوة بأنـه لا يهتـم كثـيرا إلى باقـي مصاديـق القـوة والتـي أسـماها بـ «القـوة الناعمـة» التـي تقـوم عـلى معامـل الجاذبيـة الحضاريـة وإرادة الغـير في التقمـص، والتـي تظـل الأقـل كلفـة في جميـع الأحـوال مـن اسـتعمالات القـوة العسـكرية.

نـاي لا يلغـي المقـدرة العسـكرية مـن المعادلـة بقـدر مـا يريـد تطعيمهـا بالجانـب الجـذاب في مـا أسـماه القيـم والأخـلاق والثقافـة الأميركيـة الانكلوسكسـونية. إلا أنـه وأمـام الانسـدادات التطبيقيـة الكثـيرة التـي وقفـت أمـام ناظريـه لأنـه تيقـن بـأن العـالم يكـره الولايـات المتحـدة ويكـره سياسـتها حتـى مـن قبـل مـن يحسـبون عـلى الأصدقـاء، طـوّع نظريتـه إلى سـقف ثـانٍ أسـماه «القـوة الذكيـة» التـي تجمـع بين القـوة الصلـدة والقـوة الناعمـة في الحراك الاسـتراتيجي.

لـذا فـإن حركيتـه هـي ذات وجهـة توسـعية بجميـع المصاديـق حتـى بالسـلاح، وهـي وجهـة لا تنظـر إلى العـالم إلا بوصفـه حقـلا خصيبـاً لزرعـه. فعندمـا ننظـر بـشيء مـن العمـق إلى تصـور جوزيـف نـاي بخصـوص القـوة الناعمـة لا نجدهـا إلا اسـتكمالا للمـشروع الفوكويامي، الـذي يصـير العـالم بحسـب منطقـه حامـلاً لقيمـة انكلوسكسـونية خالصـة.

فجوزيـف نـاي ينطلـق مـن مقدمـة أساسـية أو لنقـل عقيـدة أساسـية يعـبر عنهـا قولـه التـالي: «لعـل أمـيركا أقـوى مـن أي دولـة أخـرى منـذ الإمبراطوريـة الرومانيـة، إلا أنهـا مثـل

[1]ـ جوزيـف س نـاي (الإبـن): مفارقـة القـوة الأميركيـة ـ لمـاذا لا تسـتطيع القـوة العظمـى الوحيـدة في العـالم اليـوم أن تنفـرد في ممارسـة قوتهـا ؟ ترجمـة محمـد توفيـق البجيرمـي، مكتبـة العبيـكان، سـنة 2003، الصفحـة 31 و 32.

روما ليست قوة لا تقهر، ولا هي عديمة التعرض للعطب والانكشاف..روما لم تخضع لنشوء إمبراطورية أخرى، ولكنها تداعت أمام موجة من هجمات البرابرة. أما الإرهابيون الذين يستخدمون التقنيات الحديثة العليا فهم البرابرة الجدد».[1] وناي هنا يرى المطابقة في القوة بين الإمبراطوريتين الرومانية والانكلوساكسونية، وهكذا تشبيه ليس ملتصقاً بعنوان القوة كما قد يتبادر إلى الذهن بل هو شبيه معنوي ونفسي أبعد، لأن المطابقة تهم حيثية « الإمبراطورية» بالأساس. و «البربرية» في الأعداء، وهو تصنيف قيمي، يرتكز عليه ناي للدفاع عن نظرية القوة الناعمة التي يراها الأكثر نفعاً لأنها تقلل من تكاليف الإكراه أو الإغراء عن طريق الإغواء.

في المجال النظري ترتكز القوة الناعمة على ثلاثة موارد هي «ثقافته (في الأماكن التي تكون فيها جذابة للآخرين)، وقيمه السياسية (عندما يطبقها بإخلاص في الداخل والخارج)، وسياساته الخارجية «عندما يراها الآخرون مشروعة وذات سلطة معنوية أخلاقية».[2] وبطبيعة الحال فإن صاحب النظرية يرى في الامبراطورية الأميركية كل مقومات الدولة القادرة على إغواء العالم.والغريب في الأمر أنه بهكذا كلام يكون قد منح مصداقية أكبر ومن الداخل على مصطلح «الشيطان الأكبر».. ذلك بأن سياسة الإغواء واحدة والغائية واحدة وهي حرف المسار الحضاري العالمي التنوعي لصالح «الأمركة».

كنسق فكري نستطيع القول ان صاحب نظرية القوة الناعمة يبحث عن حتميات تسدد فكرته القائمة على الربط التسلسلي من البناء القيمي إلى البناء الحركي إلى البناء الوظيفي، تتكدس كلها تحت مسمى « الإمبراطورية»، والملاحظ على جوزيف ناي أنه لا يهتم بمباني (الثقافة) أو (السياسة الخارجية) أو (القيم السياسية) من حيث هي حاملة للكرامة والتعددية وغيرها من الأبعاد التعايشية في مجتمع متغير ومتعدد، بل لا يرى أهميتها إلا في مصداق تطبيقها بالحذافير، فضلاً عن انه يحاول الهرب من مشروع التبرير لمباني هذه الزوايا الثلاث، لأن الثقافة الانكلوسكسونية لا تزال تستغرق معضلة الاعتداد العقلي، ولا تزال واقعة في مخاض لا يتوقف، كما أن القيم السياسية التي يشير إليها لم تعرف نهائياً توحداً فكريّاً، ولا السياسة الخارجية أبان عن مضمونها، فالجنبة

[1]- جوزيف س ناي: القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، الطبعة الأولى سنة 2007 دار العبيكان الصفحة 13.
[2]- جوزيف س ناي: م.س الصفحة 32.

الوظيفية هي المعتملة في تصوره، لا الجنبة المبنائية. لقد شرح ناي أفهوم «القوة الناعمة» بأنه قدرة أمة معينة على التأثير في أمم أخرى وتوجيه خياراتها العامة وذلك استناداً إلى جاذبية منظومة قيمها ومؤسساتها بدلا من القوة والإكراه[1].

بعد أن استعرضنا وجهة نظره حيال التأسيس النظري للقوة الناعمة لا بأس من التطرّق إلى كيفية تصريف هذه القوة في مجال التطبيق.في لحظات كثيرة أشار ناي إلى لعبة « البوكر» حيث صرح بأنه يمكن للدولة أن يكون لها كل مفاصل القوة لكنها قد تخسر فرصة «الإمساك بالأوراق الرابحة في لعبة البوكر الدولية. فإذا أظهرت أوراقا قوية، فإن من المحتمل أن يطوي الآخرون ما بأيديهم من أوراق. وبالطبع فإنك إذا أسأت اللعب بأوراقك، أو وقعت ضحية الغش والخداع، تخسر رغم قوتك، أو تفشل على الأقل في الحصول على النتيجة التي تريدها»[2]. والتي كررها في أكثر من موضع وخصوصاً في تقدمة بحثه حول مخاطر « التعفن الذاتي» للجبهة الداخلية للولايات المتحدة[3]في يد واحدة « من مقدرة عسكرية، وقيم حضارية، وقدرة اقتصادية عالمية لكنها تخادع الخصم لتحصل على أكبر الأرباح الممكنة « فلعبة البوكر لا تنبني على قوة الأوراق الممسوكة في اليد بل أيضاً على عنصر المخادعة وإفهام الخصم بأنه يمكن أن يفوز ليضع مبالغ مالية طائلة على الطاولة، عندها يتم إظهار الأوراق كلها للفوز.

إذاً، تصريف القوة حسب صاحب النظرية، تقوم على امتلاك أوراق رابحة من خلال تصنيع ذكي للكذب والمخاتلة بشكل يضمن الربح. وإذا ما حاولنا تشخيص هذه الحالة أكثر، بدت السياسة الدولية في الفهم الاميركي الانكلوسكسوني بمثابة منظومة تقوم على أساس إظهار عكس الحقائق الواقعية، للوصول إلى النتائج المرجوة.

وهذه الحيثية تظل مهمة، لأنها ستفسر لنا الكثير مما يتصل بـ «الاستراتيجيا الناعمة» للسيطرة التي تعتمدها الولايات المتحدة اليوم في إدارة الفضاء العمومي العالمي.

ان هذا التصور القوي لا يمكن أن يجد لنفسه مرتكزاً إلا عبر إرجاع رؤية العالم إلى المرحلة القروسطية.ثمة من يرى في هذا المضمار أن العالم أجمع بدأ يعرف خصوصيات العصور الوسطى نفسها، من قبل اضمحلال مؤسسة الدولة - الأمة حيث إن الأزمات

---

[1]- Joseph S. Nye : u.s power and strategy after Iraq, foreign affairs, 1 July 2003.

[2]- جوزيف س ناي: ن.م الصفحة 32.

[3] ـ جوزيف س ناي: ن.م الصفحة 204 وما يليها.

الماليـة إذا مسـت دولـة كالولايـات المتحـدة سـوف تنعكـس بالسـلب عـلى مجموعـة مـن دول العـالم، أو أنـك عندمـا تنظـر إلى جمهوريـة الصـين فإنـك تنظـر إليهـا عـلى أنهـا أكـثر مـن دولة[1].

كذلـك الحـال بالنسـبة إلى أفغانسـتان فإنـك لا تسـتطيع أن تنظـر إليهـا بمـا هـي دولـة كسـائر الـدول. وقـد دافـع عـن هـذا التصـور في سلسـلة مقـالات لا تعـدو أن تكـون تكـرارا لمجموعـة ملاحظـات يبديهـا هنـا وهنـاك، لكـن المحصلـة هـي أن العـالم لم يعـد قريـة صغـيرة، بـل عـاد القهقـرى ليصـير عالمـاً قروسـطيّاً. حيـث يسـوده صراع عـلى السـلطة وتفكيـك للإمـارات الضعيفـة، وفي ظـل عولمـة بـات مشروعهـا أكـبر مـن دولـة واحـدة، بـل أكـبر مـن أن يهتـم بدولة واحـدة[2].

وهكـذا، فالمنظومـة الفكريـة التـي يدافـع عنهـا بـاراغ خانـا تقـوم عـلى أن الشرعـة الدوليـة وغيرهـا مـن الموازيـن الدوليـة لم تعـد ذات قيمـة تذكـر، كـما أن العصـور الوسـطى لم تعـد منضبطـة لهكـذا تصـور، وأن سياسـة التقسـيم الجغـرافي لمجموعـة مـن الـدول خدمـة لمصالح العولمـة هـي السـائدة بـلا رادع.في مقالـة لـه حديثـة رأى في التقسـيم والتجزئـة أمـراً مـن الجميـل فعلـه Breaking up is good to do، فقـد اعتـبر ان تقسـيم السـودان دولـة في الشـمال وأخـرى في الجنـوب مجـرد خطـوة في اتجـاه تقسـيم العـالم كلـه، وبطبيعـة الحـال، ليـس مـن

[1]- Parag khanna : Neo-Medieval Times, in good politics review december 2008. "The nation-state has just about passed away in terms of exclusivity. Now, when people talk about countries and international relations, they have to acknowledge that what they're talking about is, at best, a particular slice of what's going on in the world, and is not at all representative of the entirety of what's happening. But there are some exceptions. When you look at China, you don't exactly say that it is disappearing as a state. When you look at the financial crisis, all of a sudden, the United States is more of a state than ever. It has decided to take over practically the entire financial-services industry."

[2]- parag khanna : op.cit. "The key principle is overlap. Many people think that because a company isn't a country, it falls beneath some jurisdiction. But more and more companies fall into all jurisdictions and under none at the same time, because all they do is regulatory arbitrage. They just move around wherever is best for them. Why did Halliburton go to Dubai? Changing this would never work because globalization is more powerful than any one country. Globalization creates perpetual, universal opportunities for nonstate actors to exploit. And governments can't control globalization. No one can."

المستغرب أن يركز هذا الكاتب على منطقة الشرق الأوسط، جاعلا منها قدرا لا يرد[1].

ليس الغرض هو الغوص في مجمل أفكار باراغ خانا، بل فقط التنويه إلى مسألة حساسة جدًّاً، وهي أن أميركا تنظر إلى نفسها كإمبراطورية واما بقية العالم فإنهم مجرد رعايا واتباع. ولهذا لا ترى نفسها ملزمة بأي شرعية دولية، وهو ما تم التثبت منه خلال إعلان الحرب على العراق، بل نجد انها ذهبت أبعد من ذلك عندما أعلنت بأنها غير معنية بالأمم المتحدة إذا ما رأت مصلحتها في التدخل العسكري في أي مجال ترابي في العالم، في إطار ما أسمته بالحرب الاستباقية.

الحرب الاستباقية كما هو معلوم، قد لا تكون مؤسسة على مخاطر العدوان، بل يكفي أن ترتكز على استشعار «عدوانية النظام السياسي» لدولة أخرى، لتكون حربها ضده عادلة.

من داخل هذا الجهاز المعرفي وغيره من الدراسات الصادرة عن المحافظين الجدد تمّ مصوغ أطروحة «الحرب على الإرهاب». ان هذا التلبيس في المفاهيم لا غرض منه سوى رفع النقاش من السقف القانوني إلى السقف القيمي الديني والذي وُفِّق الباحث محمود حيدر في تسميته بـ «لاهوت الغلبة»[2] لأن مضامين الفكر تمتح من المنظومة الفكرية البروتستانتية النصية التي تقترب كثيرا من العهد القديم، ثم لتتقاطع قراءتها الختامية للتاريخ مع المنظور اليهودي التوراتي إلى حد بعيد.

وهذا الجهد المعرفي المتناسل في السياسة الدولية، جاء ثمرة تصور دافع عنه الباحث كينيشي أوهماي في كتابه « نهاية الأمة الدولة وانبعاث الجهوية الاقتصادية»[3] حيث خلص إلى أن التشابك الاقتصادي العالمي أخذ يتجاوز حد السيادة الدولتية حيث

---

[1]- parag khanna ; breaking up is good to do, foreign policy, January 13, 2011. "This growing cartographic stress is not just America's challenge. All the world's influential powers and diplomats should seize a new moral high ground by agreeing to prudently apply in such cases Woodrow Wilson's support for self-determination of peoples. This would be a marked improvement over today's ad hoc system of backing disreputable allies, assembling unworkable coalitions, or simply hoping for tidy dissolutions. Reasserting the principle of self-determination would allow for the sort of true statesmanship lacking on today's global stage."

[2]- محمود حيدر: لاهوت الغلبة – مصدر سبقت الإشارة إليه.

[3] - Kenichi Ohmae : End of Nation State, the rise of regional economies, Harper Collins Publishers, 1996, p, 5.

إنـه كفاعـل بـدأ يفقـد آليـة التحكـم والسـيطرة في حركـة البضائـع والأمـوال، وبـدأت هـذه الأخـيرة هـي التـي تتحكـم في حركتهـا الذاتيـة وتتخـذ القـرارات المناسـبة غفـلا عـن الإرادة الوطنيـة.

بـل إن المصلحـة الوطنيـة والسـيادة الوطنيـة أضحيـا عائقـاً اقتصاديّـاً يمكـن أن تواجهـه ثقافـة السـوق الحـرة، حيـث مجمـل الكتـاب جـاء اسـتدلالاً لتأكيـد هـذه القاعـدة، فقـد دعـا إلى إثبـات واقـع أن «الأمـة الدولـة» بمعناهـا الكلاسـيكي أضحـت غـير طبيعيـة، ومسـتحيلة في نفـس الآن، أمـام الاقتصـاد العولمـي، ثـم عـاد ليؤكـد المقتـضى نفسـه في كتابـه «المرحلـة الآتيـة للعولمـة» حيـث وضـع تفسـيراً أكـثر دقـة لمقصـده مـن الدولـة الجهويـة. إذ إنّ هـذا النـوع مـن الـدول يسـمح بهامـش تعاقـدي دولي يتجـاوز المركزيـة الإداريـة والسياسـية في نفسـه الآن، كـما قـدّم اليابـان والهنـد والصـين كنـماذج جديـدة، وناجحـة، وكفاعلـين أساسـيين في حركـة الاقتصـاد العالمـي[1].

هكـذا جهـد اسـتتبع آراء متضاربـة بـين خـبراء الـدول المتمسـكة بهامـش فعاليـة للسـيادة الوطنيـة، وبـين تلـك القائلـة بالـزوال الـكلي للسـيادة الدولتيـة. مـع ذلـك يبقـى السـؤال ضمـن هـذا الاشـكال عـلى النحـو التـالي: لمـن تكـون الأولويـة في التعاطـي، هـل للدولـة بوصفهـا فاعـلاً عالميّـاً سـواء في ظـل المدرسـة الواقعيـة أو الواقعيـة الجديـدة أو حتـى البنائيـة، أم للدولة التـي تعطـي الأولويـة إلى إيديولوجيـة السـوق الحـرة كـما تتبناهـا المدرسـة الليبراليـة والليبرالية الجديـدة؟.. كل تيـار مـن هذيـن الاتجاهـين يسـعى إلى الاسـتدلال على صحـة موقفـه التنظيري والتشـخيصي لدائـرة الفعاليـة، يقـول الباحـث المغـربي سـعيد الصديقـي: «فـإن ظاهـرة العولمة أخضعـت مفهـوم السـيادة وغـيره مـن المفاهيـم الرئيسـية في علـم السياسـة للمراجعـة وإعـادة التعريـف، فأصبحنـا نعـاصر موجـة مـن الكتابـات التـي تشـكك في المفهـوم التقليـدي للسـيادة الوطنيـة القائـم عـلى نمـوذج الدولـة التـي تراقـب بشـكل مسـتقل شـكل ومضمـون سياسـتها العامـة، وتعتـبره إمـا مفهومـا مهجـورا، أو أنـه ينتمـي إلى تقليـد مذهبـي في طريـق الفنـاء، وإمـا متجـاوز نظريًّـاً وغـير نافـع عمليّـاً، لأن الرهانـات الدوليـة الجديـدة والمشـكلات غـير المسـبوقة والحـدود الاقتصاديـة والجمركيـة التـي رسـمتها تحـولات العولمـة لا تتوافـق مـع

[1] - **Kenichi Ohmae : The Next Global Stage, Challenges and Opportunities in Our Borderless World, Wharton school publishing, 2005, chapter four.**

الحـدود السياسـية التـي يقـوم عليهـا المفهـوم التقليـدي للسـيادة»[1]. مـما يفـرض عليهـا إعـادة النظـر في أولوياتهـا الحديثـة في ظـل هـذه المتغـيرات حتـى تحافـظ عـلى مكانتهـا كفاعـل محـلي ودولي.

مثـل هـذا النظـر يتخـذ مقامـاً محوريّـاً في نظريـات الدولـة في زمـن مـا بعـد العولمـة كـما يسـتلزم إعـادة النظـر في كل المداميـك الدولتيـة سـواء لجهـة ناظميتهـا للشـأن الوطنـي، أو تدبيريتهـا للشـأن الـدولي.

طبعـا مـا نريـد التنويـه إليـه الآن هـو أنـه في الاسـتراتيجيات العالميـة لم يعـد يُنتبـه للأمـم المتحـدة عـلى أسـاس أنهـا رمـز الشرعيـة، بـل يُكتفـى بالنظـر إليهـا عـلى أنهـا أداة تخـدم غرضـا مرحليـا يمكـن تجاوزهـا بـكل سـهولة.

يفـضي المضيـق النظـري الـذي يعـبره عـالم اليـوم الى أن العقـل الاسـتراتيجي الأنكلـو-أمـيركي أضحـى أحـادي البعـد وتقسـيميّاً ليكـون بهـذا عـلى وصـل وثيـق بالعقـل القروسـطي الـذي طالمـا سـعى كانـط إلى محاربتـه مـن أجـل خلـق اتحـاد عالمـي عـادل. لأن جزئيـة «التقسـيم» و «العـدوان المسـتمر» فكـرا وممارسـة هـي أحـد أهـم نواقـض المـشروع الكانطـي ذاتـه، والتـي لا تقـع إلا ضمـن خانـة « العمـل المشـين».

ولـذا فـإن ما ذهبنـا إليـه في تأصيل الموجـود التاريخـي الانكلوساكسـوني بصيغتـه الأميركية، يضعنـا أمـام حقائـق تنقـضي معهـا علـة هـذا الوجـود وتضعـه عـلى محـك الاضمحـلال كقـوة عظمـى (بالقـوة) وصـولاً الى تهافتـه واضمحلالـه بالفعل.

[1] - سـعيد الصديقـي: هـل تسـتطيع الدولـة الوطنيـة أن تقـاوم تحديـات العولمـة ؟ ضمـن عمـل جماعـي تحـت عنـوان العولمـة والنظـام الـدولي الجديـد ، صـادر عـن مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، الطبعـة الثانيـة سـنة 2010، الصفحـة 119